

الأحد 21 من ديسمبر سنة 2008م - 23 من ذو الحجة سنة 1429هـ - العدد 806

### ناقد الاستشراق



Artist: Demir Dhanc

د. ناصر ابراهيم :كلية الاداب - جامعة القاهرة

خلف الدكتور رعوف عباس تركة علمية كبيرة وثرية، وبرغم كوني واحدا من بين المهتمين والمتابعين لانتاجه العلمي والفكري، الا انه يبدو لي أن رحيله قد ساعد أكثر فأكثر علي استدعائه ككل، انتاجا وفكرا بكل قيمته العلمية الكبيرة: فالانكباب علي أعماله ودراساته المتعددة، جعلنا نكتشف ان رواعها مشروعا فكريا كبيرا.. ارتكز، في واقع الامر، علي مجالين في الكتابة التاريخية: مجال عني فيه أكثر ما عني برصد مسارات تطور المجتمع المصري الحديث والمعاصر، وآلية التحول والتغيير الاجتماعي من مرحلة إلي اخري.

وما كان يصحب ذلك من انعكاسات علي تغير البنية الاقتصادية والسياسية في المجتمع، علي انه يبدو أكثر اهتماما بتحليل عناصر القوة المحركة للتطور، بصرف النظر عن كون هذه العناصر نتاجا لعوامل داخلية كامنة في المجتمع، او لعوامل خارجية تستثير وتحفز ما هو في الداخل، فتدفع المجتمع إلي الانتقال من مرحلة إلي اخري، اما المجال الثاني فقد تمثل في عنايته «بأزمة المنهج والكتابة التاريخية»، في مصر والعالم العربي، وكتب في ذلك خمسة مقالات مهمة، حاول فيها تشخيص الداء وتقديم اقتراحات عديدة لعبور هذه الأزمة والنهوض بالكتابة التاريخية في مصر والعالم العربي.

واتصور ان هذين المجالين او فنقل بالأحري الشاغلين الاساسيين في فكر رعوف عباس يمثلان مدخلا مهما لفهم الاسباب التي جعلته معنيا بمراجعة المقولات والأفكار والنظريات التي انتجتها مدرسة الاستشراق... ولعل أهم تلك الاسباب هو ما تمثل في ايمانه بأن كل ظاهرة تاريخية لا تظهر صدفة أو فجأة. ولكن لابد ان يكون وراءها، «تراث» طويل معقد ومركب يؤدي إلي بروزها فوق السطح في لحظات نضوجها واكتمال دورتها من النمو والتشكل، ومن ثم يتعين علي المؤرخ - في رأيه - ان يعتمد في دراسة الظاهرة علي واقع المادة الوثائقية وغيرها من المصادر الأولية، وليس علي الافكار النظرية المسبقة، وأن يولي اهتمامه باعادة تركيب الظاهرة، والبحث في عوامل الحركة فيها، ثم تفسير تطور المجتمع المصري في اطارها، دون التقيد المسبق بقالب نظري معين، علي ان ذلك لا يعني - عنده - ان نطرح الأطر النظرية جانباً. وانما نفيد منها في تحليل المادة التاريخية. ولما كان الفكر الاستشراقي يقوم في الاساس علي ما هو معروف ب «المنهج الانتقائي» في اختيار المادة التاريخية التي تخدم افكارا مسبقة تم بلورتها خارج السياق التاريخي للوقائع والاحداث، والتجاوز عما يتعارض مع تلك الافكار، فقد كان لابد ان يجد رعوف عباس نفسه «وأمثاله من المؤرخين الاجتماعيين» في الاتجاه المناقض تماما للفكر الاستشراقي، فهو عند دراسته للظاهرة التاريخية يؤكد علي ضرورة التحرر من النزعة الذاتية الضيقة، وان يعالج المؤرخ الظاهرة في اطار السياق التاريخي الذي برزت من خلاله، ليغوص في عمق واقع الظاهرة المدروسة، محللاً مانجيم عنها من اثار مختلفة علي المستوي الاقتصادي/ الاجتماعي، كما يتعين عليه ان يأخذ في الاعتبار تجلياتها الاخرى المباشرة وغير المباشرة علي تشكيل البنية السياسية والثقافية للمجتمع، وهذا تحديدا ما يعرف عند رعوف عباس «بالمنظور التاريخي (الواقعي) في فهم التاريخ».

علي حين ينطلق ارباب الفكر الاستشراقي من اطر نظرية مفصلة، لجعل الشرق بالضرورة، الصورة المضادة للغرب في كل مناحي الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومن ثم فالنتائج . الاهداف محددة سلفا قبل البحث والدراسة، ويصبح دور المستشرق تأويل ما ينتقيه او يرصده من حالات فردية (لا تمثل سوي حالات استثنائية) سعيا الي تشكيل انطباع عام، يؤدي إلي التأكيد علي فكرة الفصل بين ما هم شرقي (متخلف / ومتدهور) وبين ما هو اوروبي أو غربي (متقدم / مزدهر) بصورة حتمية!! ومن هنا تصبح مهمة الاخير المتقدم أن ينهض بالأول المتخلف، وهو ما لا يمكن تحقيقه - وفقا للرؤية الاستشراقية - سوي من خلال أطروحة التدخل (الغزو الاستعماري)، وهذا ما يفسر ارتباط الاستشراق بالكولونيالية (الامبريالية)، وعلي ذلك فالكتابة التاريخية الاستشراقية ليست اختبارا لفرصيات او طرحا لإشكاليات تستهدف البحث عن إجابة (موضوعية). وإنما هي نظرة متحيزة ذات طابع ايديولوجي، من جراء شدة الافراط في التظهير المجرد والابتعاد عن حقيقة الواقع الاصلي المعيشي، الاستشراق بهذا المعني لا يقدم سوي «رؤية افتراضية» أو «صورة متخيلة» عن الشرق لا تمت للواقع التاريخي بصلة، ويصفها رعوف عباس «بالنظرة الأحادية للتاريخ».

إن هذا التناقض في التوجه المنهجي بين المستشرقين والمؤرخين الاجتماعيين (أمثال رعوف عباس، وبيتر جران ونللي حنا وعاصم الدسوقي وغيرهم) يمثل في حد ذاته إشكالية هامة فرضت وماتزال تفرض نفسها بقوة علي ساحة العمل البحثي الأكاديمي. بما يجعلها حقيقة بأن يفرد لها دراسة مجهرية خاصة، وأحسب أن لهذا النوع من الدراسات والبحوث أهمية كبيرة، جديرة باعمال الفكر في تطوير شكل الكتابة التاريخية عندنا، وفي انتاج أدوات معرفية ومنهجية جديدة، تمكننا من التصدي للاستشراق الذي يطور أفكاره وأطره النظرية بشكل مؤسسي مستمر، ويحتاج من ثم إلي جهود جماعية من المفكرين والمؤرخين حتي لا ينفرد المستشرقون بالساحة، ويحققوا بغيتهم في الهيمنة علي وعينا القومي بالتاريخ.

وفي هذا الاطار تأتي أهمية تحليل الطرح الفكري النقدي عند رعوف عباس للدراسات الاستشراقية التي تناولت التاريخ للمجتمع المصري والعربي الحديث والمعاصر، لما لذلك الطرح من أهمية ليس في تحرير رؤيتنا لتاريخنا القومي من الايديولوجيات الاستعمارية فحسب، وإنما كذلك في النهوض بالكتابة التاريخية علي أسس أكثر علمية. بداية لابد ان نشير إلي أن ثمة مرتكزات اساسية في فكر رعوف عباس، جعلته ينتقد جوانب أساسية ومحورية في الفكر الاستشراقي، وتتلخص هذه المرتكزات في النقاط التالية:

١ ان المجتمعات لا يمكن ان تتطور وفق سياق تاريخي واحد، فلكل مجتمع مقومات التطور الخاصة به، وليس ثمة نموذج واحد ووحيد للتطور، وانه لا يوجد قانون واحد يحكم المجتمع، أي مجتمع، ومن ثم يتعين مراعاة جانب الخصوصية التي تتبع من الظروف البيئية، والتي تحدد مسار التجربة، وإذا فأنماط التطور تتعدد وتتنوع تبعا لتباين

ظروف وسياق التطور في كل مجتمع من المجتمعات، من هنا جاء رفضه للطرح النظري الاستشراقي عند «دعاة التحديث» و«نمط الانتاج الآسيوي» أو فكرة الاستبداد الشرقي».. أو فكرة «نمط الانتاج الخراجي».. إلخ فبين رءوف عباس أن هذا الطرح النظري غير ملائم لتفسير تطور المجتمع المصري: فالبحث عن قسما ت مشتركة تجمع بين مصر وغيرها من المجتمعات الزراعية النهريّة كالهند والصين، أدّى إلى تجاهل العديد من الحقائق الفارقة بين تلك المجتمعات، مؤكداً علي أن لكل مجتمع سياقاً خاصاً لتطوره، يختلف عن غيره من المجتمعات، وأن التشابه بينها هو مجرد تشابه جزئي، يقتصر علي الملامح دون الجوهر، وهنا تحديداً تظهر المفارقة المنهجية بين رءوف عباس وغيره من المستشرقين، فهو ينظر إلى التاريخ الانساني باعتباره تياراً من التطور الذي لا يثبت علي حال واحد، علي حين دعاة الاستشراق يحاولون البرهنة علي وجود جوهر ثابت «بمايز بين المجتمعات الشرقية والمجتمعات الغربية، ومن ناحية أخرى يبين رءوف عباس أن الإصلاح والتحديث الذي قام به محمد علي في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، جاء علي نسق مختلف عن النمط الغربي، ملتبساً للظروف الموضوعية للمجتمع المصري التي تضرب بجذورها في أعماق تاريخ مصر عبر العصر العثماني، وأنه إذا كان قد استعان بالخبرة الأوروبية في شتي المجالات إلا أن ذلك كان علي نطاق محدود، وظلت اليد العليا في حركة الإصلاح لعناصر عثمانية (تركية) أو مصرية، وما تحقق علي يد محمد علي لم ينشأ من فراغ، وإنما اعتمد علي الأساس الراسخ للتجربة التاريخية المصرية، ويعني ذلك أن واقع مصر في العصر العثماني كان له شأن آخر، غير ذلك الذي شاع في أدبيات الاستشراق، وينتهي رءوف عباس إلى أنه أن الأوان لإعادة تقييم تجربة التحديث في القرن التاسع عشر علي ضوء ما قد تتوصل إليه دراسة العصر العثماني من نتائج.

٢ - يأخذ رءوف عباس علي المدرسة الاستشراقية اتجاهها الي التعميم والتقاط بعض الشواهد دون النظر إلى سياقها، ثم استخلاص نتيجة معينة منها، وتعميم هذه النتيجة علي المجتمعات الإسلامية أو الشرقية عموماً للإيحاء بوجود «نموذج نمطي» واحد لكل المجتمعات الشرقية «ويعتبر رءوف عباس هذه المسألة أحد أبرز أوجه القصور في الدراسات الاستشراقية، لأنها «تتجاهل عن عمد التباين الواضح في مستوي النمو المادي والثقافي بين تلك المجتمعات وبعضها البعض، ويرى أن «أي تعميم لظاهرة اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية علي كل المجتمعات الشرقية يعد خطأ منهجياً فاحشاً لأنه يقدم نتائج مضللة وغير دقيقة: فعلي سبيل المثال: يعيب رءوف عباس علي المستشرقين إصاق المجتمع العربي تحت الحكم العثماني بنوع «الجمود والركود والاضمحلال والتخلف» من دون دراسات رصينة تعتمد علي المادة الأرشيفية الخاصة بتلك المجتمعات، حيث اعتمد المستشرقون علي المصادر الثانوية (كتقارير الرحالة والقناصل الأجانب) التي تهتم بالسطح ولا تغوص الي اللب «علي حد قوله.. كما يرى أن من الخطأ الجسيم عدم الأخذ في الاعتبار اختلاف ظروف المجتمع الواحد من قرن إلى آخر. وأن حالة الضعف والتدهور التي مرت بها مصر والولايات العربية في أواخر القرن الثامن عشر، لا تبرر سحب استنتاجاتهم علي العصر العثماني كله الذي افترضوا مسبقاً أنه كان راكداً جامداً مضمحلاً. ولذلك يرى أن هذا النوع المتسفة قد جاءت «من منطلق شوفيني محض.. فلم يكن الحكم العثماني قماطاً يحد من حركة المجتمعات ويفرض عليها السكون والركود، وإنما كانت المجتمعات العربية تستجيب لظروفها الموضوعية ازدهاراً وكساداً حسبما املته الظروف، ولم تبق جامدة هامة علي النحو الذي تروجه الأدبيات الاستشراقية.

٣ - يرى رءوف عباس أن قدوم الغرب لم يكن بعثاً للحياة في مجتمعات الشرق، وإنما كان من معوقات تطورها، ويعد هذا قلباً لكل المنظومة الاستشراقية التي تحاول الترويج لفكرة شيوع «التخلف والركود الحضاري» في المجتمعات الإسلامية الشرقية، وأن الغرب كان مضطراً، وإنطلاقاً من مفهوم «الرسالة الحضارية المزعوم، لازالة هذا التخلف والركود ران علي الشرق، وذلك من خلال أطروحة الغزو، هنا يكشف رءوف عباس عن أن الاستشراق كان جناحاً هاماً للمدرسة الاستعمارية، وأن تبرير التدخل الاستعماري كان أحد الأفكار التي بلورها الاستشراق للقوي الإمبريالية، ويكشف عن حقيقة الدور الذي لعبه الاستعمار في إعاقه النمو الاقتصادية في البلاد التي خضعت لحكمه، وربطها باقتصاده بروابط التبعية كمناطق لتزويده بالمواد الخام في أسواقه، وهي آليات - في رأيه - أدت إلى إعاقه تكوين السوق الوطنية، وشل حركة نمو الإنتاج المحلي. بل أنه يؤكد علي أن الاحتلال الإنجليزي كان مسنولاً عن اجهاض مشروع النهضة أو التنمية الذاتية التي تحققت في عهد محمد علي، كما يعزي إليه تكريس التخلف الحضاري.. «فالعرب لم يسمح الا بتحول محدود للبنية الأساسية للمجتمع المصري، بالقدر الذي يتيح له ربط البلاد بروابط التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية».. أما الحملة الفرنسية فإنه يرى أنها كانت بمثابة «صدمة» هزت المجتمع بدرجة عنيفة، أسفرت عن افاقته من سباته العميق، فنشطت عوامل التغيير الكامنة في المجتمع والتي استغلها محمد علي أحسن استغلال في تحقيق مشروع دولته الحديثة.. وهو يوضح أن الإصلاح

والتحديث لا يأتي إلا تلبية للظروف الموضوعية للمجتمعات «بنية وتكوين وتجربة».. ومن هنا جاء تشديده علي ضرورة اعادة تقييم حجم الدور الذي ساهم به «المؤثر الخارجي» الممثل في قدوم الغرب، وذلك علي ضوء تحليل العوامل الكامنة في المجتمع، والتي اطلق عليها «دور البنية الاساسية في صياغة حركة المجتمع بكل ابعاده».. فالتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تاريخ المجتمعات مسألة معقدة، ولا يمكن تفسيرها من منظور «أحادي النظرة» وإلا جاء مجال الرؤية محددًا، مما يؤثر علي قيمة ما يتوصل إليه المؤرخ من نتائج تأثيرا سلبيا.

٤ - أما المرتكز الرابع والآخر في الأطروحة الاستشراقية، فيقوم علي ان الاسلام كدين وثقافة تسبب في احداث، «فجوة حضارية» مع الغرب، وأن الثقافة الإسلامية تدعو إلي التواكل والتكاسل، ولا تحض علي الابداع والابتكار، وأن سلبية الثقافة العربية الإسلامية هو ماجعلها لاتنتج سوي «التخلف» وأن مفتاح التقدم يتمثل في اعتناق الثقافة الغربية وطرح الدين والثقافة الإسلامية جانبا! هنا يكشف رءوف عباس عن ان الاستشراق حاول تبرئة الساحة الغربية من تحمل وزر التخلف الذي ترتب علي الموجة الاستعمارية التي اجتاحت معظم البلدان الإسلامية في الشرق منذ القرن الثامن عشر.. ويرى رءوف عباس ان هذا الطرح يعكس «الرؤية التفكيكية» (غير الموضوعية) التي ترمي الي طمس الهوية الثقافية في المجتمعات الشرقية، كما انها تنكر علي المجتمعات الشرقية إمكانية التطور والتحول والحركة الانسانية، لتتسم صورة تلك المجتمعات في اخر الامر بعدم القدرة علي الحركة والانتاج، ويبين رءوف عباس، ان العالم الإسلامي وإن كان قد فقد وحدته إلا أنه لم يفقد قدرته علي استيعاب الحضارة الإنسانية التي ورثها عن الشعوب التي دخلت تحت رايته، وأن العالم الإسلامي له رصيد تاريخي ثري في تجربة التواصل بين الثقافات، اقتباسا وابداعا وعطاء».. ثم يطرح تساؤلات ساخرة فيقول: اذا كنا علي هذا القدر من الكسل وفقدان الطموح وعدم التزام الدقة وعدم تقدير قيمة الزمن (وهي مكونات الصورة الافتراضية المزعومة) فكيف كنا نمسك بزمام اقتصاد العالم في القرون الوسطي، وكيف استطعنا ان نتجاوز محاولات قطع روابطنا التجارية مع عالم المحيط الهندي بعد قدوم الغرب إلي تلك البلاد، وكيف انجزنا تجربة متميزة لبناء اقتصاد وطني في النصف الاول من القرن التاسع عشر؟ ان هذه الأسئلة تبريء الاجابة عليها ساحة ثقافتنا وديننا من تهمة استمرار التخلف وفقدان روح المبادرة.

ولاشك ان الطرح النقدي عند رءوف عباس للمنظومة الفكرية الاستشراقية يمثل محاولة جادة، تستند الي أسس علمية وموضوعية في الرد علي ماجاء في أدبيات الاستشراق، وتبين إلي اي حد يتعرض وعينا بتاريخنا القومي في العالم العربي والإسلامي للتشويه والتزييف ما لم نشمر سواعدا علي مواجهة هذا التحدي الفكري، وثمة ملاحظة لابد من ايرادها هنا وهي ان المفكرين والمؤرخين في عالمنا العربي، ممن شغلتهم هذه المسألة طويلا، هم قلة محدودة، في حين ان الاستشراق الغربي يمثل مؤسسة كبيرة لها باع طويل في ممارسة الاستشراق منذ ثلاثة قرون مضت، وتنتج بصفة مستمرة العديد من المفكرين والمؤرخين أرباب هذا الفكر، وتجدد منظومتها الفكرية وأدواتها المعرفية والمنهجية، ومن هنا فمن الخطورة ان لا نتبني مشروعا فكريا للنهوض بالكتابة التاريخية عندنا، وان نجدد مناهجنا وأفكارنا، وأن نحقق التواصل المعرفي بصورة قوية مع الأفكار والروى التفسيرية الجديدة والمتجددة.

<http://akhbarelyom.org.eg:81/adab/articleDetail.php?x=adab2008&y=806&z=1978&m=4>